۲

بانتظار فَرَج

بِقلم: شامل سفر

الفصل الثاني

صابر أفندي الزيزفونيّ رجلٌ مؤمن .. هكذا كان يصنّف نفسه. جَمَعَ بضعَ أقوالٍ من هنا، وكتاباتٍ من هناك .. أضافَ إليها مجموعةً وافية من بنات أفكاره .. ثم مزجَ الجميعَ في خلطةٍ ما أنزل الله بها من سلطان .. لِيُعلِنَ نفسَهُ - في مرحلةٍ ما من حياته - إنساناً مؤمناً. ثم إنه توقَّفَ تماماً عن القراءة والاستماع، وعن كل شكلٍ من أشكال الاطّلاع بخصوص الإيمان والعقيدة، معتبراً أن باقي (الفرعيّات!) سيتكفّل بها عقله .. عقله الذي اعتبره كافياً وافياً.

وأما مَن هو فَرَج .. فَرَج الذي جَنَّدَ صابرٌ كلَّ ما أمكنه من تَفَكُّرٍ وتأمُّلٍ وتوقُّعٍ وخيالٍ واستشرافٍ واستقراءٍ واستنباط .... بل ودراساتٍ - حسب زعمه - كي يفهم لماذا لم يأتِ حتى الآن .. فَرَجٌ هذا، حبيبُ صابرٍ وهوى فؤادِه.

فَرَج بالنسبة لصابر، هو المُنتَظَر والمأمول .. هو حلَّالُ العُقَد، وجالِبُ السعادة، وقاهرُ الأعادي ... فقط فَلْيَأتِ، ثم سَيُري صابرٌ أولئكَ الهَمَج كيف يكون النصرُ والسؤدد، ولِمَنْ تكونُ الغَلَبَةُ.

فَرَج هو المالُ والغِنى .. وهو ماحي آثارِ النكدِ والتعاسة ... إنه فَرَجٌ الذي - وإنْ طال انتظارُ صابرٍ له - سيأتي .. سيأتي لِيُكَلِّلَ رأسَ صابرٍ بِالغَار. وكيف لا، وصابرٌ - لا غيره - مؤسِّسُ نظريةِ انتظارِه .. وواضِعُ أسسِ كيفيةِ انتظاره .. والمحللُ الاستراتيجيُّ الذي لا يحتاج إلى أي قناةٍ فضائية تستضيفه كي يتفوَّه بالدُّرَرِ وعميقِ الحِكَم الشارحةِ أسبابَ غيابِه

.. يكفيه جمهوره من الخاصّة ..... جمهوره الذي لم يترك يوماً، حضورَ عروضِ المسرح الصابريّ والتصفيق لروائعه.

طبعاً .. تُرَّهاتُ ما يُسمّى بالـ (مسرحِ التفاعليِّ) لم تكن واردةً في قاموس الأستاذ الزيزفونيّ، على الإطلاق ... فإيجابيةُ الجمهور – على الرغم من صمته الدائم – كان صابرٌ على استعدادٍ تام لأنْ يُقسِمَ .. لِأنْ يَحلِفَ بأنه يراها رأيَ العين كلَّ ليلة، لا أنْ يستشعِرَها وحَسْب ... صحيحٌ أن صابر بيك هو المتكلمُ الوحيد، والباقي مستمعون .. إلا أن في صمتهم من التفاعل والإيجابيّة ما لا يفهمه كثيرٌ من المتشدّقين بأكاذيب احترام عقل المتلقّي.

وفي ليلةٍ من ليالي المسرح .. ليلةٍ من أواسط أيلول ... داعبَتْ نسماتٌ وجهَ الأستاذِ، فألهَمَتْهُ .. لمعتْ الفكرةُ، فوضعَها موضعَ التنفيذِ فوراً .... بدأ صابر يتكلم باسمِ فَرَج نفسه .. تَقَمَصَّهُ، لَبِسَهُ، عاشَهُ، بل سَمَحَ لنفسه أنْ يُنْطِقَهُ كما يحلو له .. فكانت المفاجأة.

- كذَّاب .

سمعها صابرٌ بأذنيه .. سمع تردُّدَ صداها الذي رنَّ في جنبات الصالة .. مَن هذا الذي يتكلّم في حَضْرَةِ الأستاذ ؟!

جال صابر ببصره على وجوه الجمهور، حاول ان يقرأ ردود فعلِهم تجاه ما سُمِع .. كانت النتيجةُ واضحةً وضوحَ الشمس؛ لقد سمعوا جميعاً.

أعاد النظر بين الجمهور وهو يحاول أن يجد قائلَ الكلمةِ بينهم، فلم يُفْلِح. كان الجميع مستغربين وخائفين في الوقت نفسه، وينظرون نحو الخشبة .. يتوقَّعون من الجهبذ ردةَ فعلٍ عنيفة، أو تأنيباً على أقل تقدير.

وعاد الوعي الفطريُّ إلى صابر، لكن بشكلٍ نسبيّ .. تذكَّرَ أنه – هو نفسه – يمارس الكذب على نفسه، وأن هؤلاء الشاخصين بأبصارهم نحوه، ما هُمْ إلا أبناءُ وَهْمِهِ واختلاقِهِ.

تَمَّ كلُّ ذلك في ثوانٍ قليلة .. ثم اختلطت الأمور فيما تبقّى مِن عقل صابر، وعاد يتوهّم أن الكلمةَ الاستنكاريَّةَ التي سَمِعَ، ما هي إلا بنتٌ مِن بناتِ وَهْمٍ .. وما أكثرهن ... فَهَمَّ بأنْ يتابع الأداء كأن شيئاً لم يكن .. وما إنْ تفوَّهَ ببضع أحرف حتى سمعَ الصوتَ من جديد ...

- كذَّاب .

نفس الكلمة، لكن بنغمةٍ أكثر تأكيداً .. أكثر إغاظةً وتَعَمُّداً ... وصَعَدَ الدمُ إلى رأس صابر الزيزفوني دفَّاقاً حتى احمرَّ وجهه وانتفخت أوداجه، وشَرَعَ يبحث بِناظِرَيْهِ بين الجمهور عن الفاعل، وكأنه محقق جنائي. كان التململُ بادياً على وجوه الجمهور .. الجمهور الذي ظلَّ لسنوات صامتاً يتلقّى .. الجمهور الذي أبى وَهْمُ صابرٍ إلا أن يختلقَهُ اختلاقاً؛ كي يضمن ولاءَهُ وسكوته الدائمَين.

- ألا تريد أن تردَّ عليَّ .. أقولُ لك: كذاااب .

– ماذا ! .. مَن أنت ؟ ... أين أنت ؟

- أمّا أين أنا، فَكُنْ متأكِّداً أني في مكانٍ آخر غير رأسِكَ الفارغ هذا .. إلا مِن الأوهام طبعاً؛ فأنا لستُ مِن أبناءِ خيالاتِك ... وأمّا مَن أنا، فهل أنت متأكّدٌ أنك تريد أن تعرف ؟

وانتشرت همهماتٌ بين الجمهور .. بل إن بعضهم تلفَّتَ محاولاً أن يجد مصدر الصوت، فازداد صابر غيظاً؛ لقد بدأت الخيوطُ تنفلت من بين أصابعه.

– قُلْ مَن أنتَ ياهذا .. أو أَظْهِرْ نفسك إذا كنتَ شجاعاً.
- أنا أشجعُ منك ومن الزيزفونيّ الكبير وسلالته، أيها المسكين.
– كيف دخلتَ إلى هنا ؟
- أنا أدخلُ إلى هنا منذ سنواتٍ يا صديقي، وحضرةُ جنابِكَ لا تشعر بشيء .. كم تحمَّلْتُ الاستماعَ إلى ترّهاتك كلَّ مساء.

هَمَسَ وَهْمُ صابرٍ في أذنه أنْ جمهورُكَ ولاؤهُ لكَ بالكامل .. فاستعملْهُ ... تَمالَكَ صابرٌ نفسه، أَلْبَسَ وجهَهُ لَبوساً من النبالة المصطنعة، ثم قال بلهجةٍ شكسبيريّة:

– حسناً .. أتحدَّاكَ أيها الدخيل؛ أمام هذا الجمهور الكريم، أن تُفْصِحَ عن اسمك.
- سأقولُ لك مَن أنا .. أنا فَرَج ... فَرَج القادريّ.